

البطولة وتمثلاتها في السيرة الشعبية بين تداخل المرجعية التاريخية والتخييلية

" مقارنة في سيرة سيف التيجان "

The tournament and its representation in the folk biography between historical and imaginary reference overlaps "Connection in the biography of saif attidjan."

d. bouhannache aicha د/ بوحناش عائشة¹

جامعة الجيلالي بونعامة (خيس مليانة) Université Al-Djilali Bounnama Khemis Miliana¹

المؤلف المرسل: د/ بوحناش عائشة bouhannache aicha الإيميل: a.bouhannache@univ-dbk.m.dz

تاريخ الاستلام: 2025/03/ 02 تاريخ القبول: 2025/05/ 22 تاريخ النشر: 2025 /06/04

.....

الملخص: انطلقت هذه المقاربة النقدية من تقديم إشكالي تساؤلي حول إمكانية تداخل التاريخي والتخييلي في بناء السرديات الشعبية فهذه الأخيرة تمثل إرثا ثقافيا وخزاناً فكرياً لذاكرة الشعوب العربية وقد حاولنا في هذه الرؤية تقديم قراءة مفاهيمية للسيرة الشعبية وذلك من خلال توضيح بعض الفروقات بينها وبين الحكاية الشعبية والطابع الملحمي للأساطير فالسيرة الشعبية لها خصوصيات تنفرد بها كجنس أدبي يؤرخ للأحداث التاريخية وقد خصصنا في هذا المقام سيرة سيف التيجان ومحاولين وهادفين إلى إبراز تمثلات البطولة، البناء التخييلي والاستلهام التاريخي الذي تميزت به هذا السيرة والذي لا يخلو من الطابع القصصي الديني الذي ميّز الثقافة العربية الإسلامية بغض النظر عن زمنية السيرة التي سُردت فيه.

الكلمات المفتاحية: التخييل، السيرة الشعبية، الملحمة، البطولة، التمثلات.

Abstract: This critical approach proceeded from a problematic query about the possibility of historical and imaginary overlap in the construction of popular narratives. The latter represents a cultural heritage and an intellectual reservoir to the memory of Arab peoples. In this vision, we tried to provide a conceptual reading of the folk biography by illustrating some differences between the folk tale and the epic character of the myths. s history ", the imaginary construction and historical inspiration that characterized this biography, which is not without the religious anecdotal character that characterized Arab-Islamic culture regardless of the time of the biography in which it was told.

Keywords: Imagination, folk biography, saga, heroism, representations.

1. مقدمة:

إن ما يميز شعوب العالم على من الرغم تنوعهم واختلافاتهم وحضارتهم هو تراثهم الثقافي المادي واللامادي عموماً والأدبي خصوصاً، فوجود الأمم مرهون بتاريخها وأمجادها وبطولاتها التي تتناقلها الأجيال جيل بعد جيل في شكل مرويات شفاهية أو مخطوطات ومدونات شعرية قصصية وغنائية دُونت لاحقاً، لكل حضارة خصوصياتها الثقافية وهذه الخصوصية تنبع بالدرجة الأولى من طبيعة الجغرافية واهتمامات الإنسان المنتمي لطبيعة جغرافيته وأزمته.

تعد المجتمعات العربية واحدة من أبرز المجتمعات التي تزخر بإرث ثقافي أدبي شعبي واسع ومتنوع عبّرت عن يومياتهم وملاحمهم وبطولاتهم وانتصاراتهم وتقاليدهم عيشه عن طريق ما يعرف بالسير والحكايات الشعبية التي تروي لنا بعضاً من الملامح العامة للمجتمعات العربية في القدم بين وقائعها التاريخية والتخييلية التي تروي على لسان البشر وفي هذا الصدد يقول عبد الله العروي: «في عهد المرويات السمعية، عهد أساطير الأولين، التاريخ هو في آن هو بشري وكوني، المنطق هو أن التاريخ كوني في مضمونه وبشري في حفظه وذكره، الذكر يروي قصة الكون بلسان البشر».¹

إن السيرة الشعبية تجعلنا أقرب إلى فهم ومعرفة التركيبة الفكرية والذهنية التي انبنت عليها حياة العرب خلال فترات زمنية معروفة أو مجهولة مادامت ارتبطت وانتقلت شفاهياً، كما نجد هذه السير الشعبية على تنوعها تناقش قضايا اجتماعية وسياسية وفكرية لحقب زمنية شهدت بطولات وانتصارات وأحداث شاهدة على تلك الأزمنة مثلت اليوم كتراث إنساني ضخم يحتاج إلى احتفاء ثقافي وإلى قراءة ثقافية تحفر فيما ما هو تاريخي واقعي وعن ما هو تخيلي محض وإلى تحقيق حول الشخصيات التي نُسبت لها أدوار البطولة وانتخبها الجماعات لتمثل صورتهم بين وجودها الواقعي الفعلي والخرافي إذ يحاول الإنسان العربي أن يصور عبر سرده لهذه السير الشعبية بعضاً مما يحاول أن يكون عليه أو ما يطمح أن يحققه وحتى إحباطاته التي يرويها في صورة البطل الخارق أو البطل الذي لا يقهر في وجه البطل المضاد الذي يحاربه خاصة أن هناك فهم متعدد لمعاني البطولة التي ترويها أو كما تستحضرها أغلبية هذه السير كالسيرة الهلالية وسيرة عنترة بن شداد وسيرة سيف ذي يزن أو سيرة سيف التيجان أو سيرة حمزة البهلوان إلخ وعليه يتأتى لنا طرح الإشكال الآتي الذي يفتح لنا أبواباً من النقاش والآراء حول هذا التراث الأدبي العربي الذي سرد في شكل غنائيات وقصائد شعرية مطولة وقصص وحكايات تعبيرية جسدت التراث الثقافي الشعبي ، فكيف نقرأ اليوم السيرة الشعبية لفهم ما هو تاريخي واقعي وما هو تخيلي خرافي؟؟ وما مدى صحة ارتباط وانتساب

هذه السير الشعبية لهذه الشخصيات البطولية المشهورة والتي قد تسند إلى مرجعيات تاريخية أو ارتبطت بالمخيلة الشعبية فقط؟ وهل يمكننا فهم هذه المخيلة الشعبية من خلال تفكيك بعض الصور والقيم التي شكلتها؟ أما التساؤل الأخير فهو حول الكيفية التي يمكننا من خلالها خلق اهتمام أكاديمي ونقدي بالسير والحكاية الشعبية لمجتمعنا الجزائري باعتبارها تمثل رصيدنا الثقافي والأدبي وسجلتنا التاريخية التي لاقت إهمالا من جانب الدراسة والبحث فيها إلى حد ما ؟

2. التداخل بين السيرة الشعبية والحكاية الشعبية والطابع الملحمي:

تمثل السيرة الشعبية ذاكرة الأمة العربية فقد حملت في طياتها قصصهم وحكايتهم كما سردت لنا هجراتهم ومغامراتهم بين البلدان العربية من مشرقها إلى مغربها، وباعتبار أن الحكاية «هي ما يريد المجتمع أن يقول عن نفسه وطريقته في فهم العالم»²، فلا جرم أن نجد القصص ارتبط بالعرب منذ الأزل إذ لا يمكن للإنسان أن يستغني عن السرد أو القصص فهو يعبر من خلاله عن آماله وآلامه وحياته وبطولاته وفلسفة عيشه، وقد عرفت «الحكايات الشعبية بأسرها، ومثلها الحكايات الخرافية والأساطير على أنها بقايا المعتقدات الشعبية، كما أنها بقايا تأملات الشعب الحسية وبقايا قواه وخبرته»³، إضافة إلى أنه يعبر عن قيمه التي يستمدّها في العادة من عقيدته الإسلامية والقومية فهو وسيلة لوصف أو للتأريخ للذاكرة الجماعية بصوت ضمير القبيلة وما شهدته من حروب وصراعات وانتصارات وجميع الأحداث التي مرت بها فما ميّز السيرة الشعبية هو أنه «كان لها الحس الفطري في توجه عربي واضح في عنصري الثقافة العربية الأساسيين القبيلة والدين»⁴، وقد رويت هذه السير شفاهيا كموروث متواصل بين الأجيال من مكان إلى مكان، في غياب الكتابة والتدوين كما تعتبر السيرة الشعبية «تعبير فني شعبي ارتبط بالأحداث التي مرت بالمنطقة كلها قبل ظهور الإسلام وبعدها، ولكنها عبرت عن الوجود الإسلامي في المنطقة بالدرجة الأولى»⁵، ولهذا كانت حاجة العربي إلى الحكيم كحاجته للماء والغذاء لأنه يعتبر وسيلة من وسائل التأريخ للأحداث والتجارب المعاشة والمعارك الطاحنة وحتى لقصص الحب المخلدة إلى يومنا هذا ولعل أقدمها وأشهرها: سيرة عنتر بن شداد، كما أنه وسيلة تعبيرية للإنسان العربي ليصف يومياته وحياته وتطلعاته وقد قيل سابقا "من يمتلك الحكاية يمتلك التاريخ ويمتلك الغد"، حيث ارتبط معنى السيرة في القواميس المعجمية وغيرها بالطريقة أو من السير فكلمنا سارت بين الناس كلما كبرت، كما ارتبطت بالحالة وصف

" مقارنة في سيرة سيف التيجان "

حالة الإنسان كيف كانت أو وصف الهيئة التي كان عليها، وجاءت السيرة بمعنى السنة أو السيرة النبوية وارتبطت أيضا بالغزوات.

أما السيرة الشعبية حسب المفهوم العام فقد ارتبطت «بسيرة أنساب قبيلة أو عشيرة أو عائلة حاكمة، مثلما هو الحال بالنسبة للإلياذة الهوميرية، والتي لا تعدو أن تكون سيرة أنساب قراية تؤرخ لأسرة أتريوس وحروبها في آسيا الصغرى التي يؤرقها حصار طروادة مع ملاحظة مدى التداخلات بين كلتي السيرة والملحمة، فكلتاهما _ في معظم الأحوال - موضوعها الجوهرى هو الحروب والأحداث الجلل من حصارات وهجرات وسي وخورق وبطولات وفروسية»⁶. فطبيعة الأحداث التي تحكيها عادة السير الشعبية تتداخل إلى حد كبير مع ما يسمى بالملحمة ونحن نعرف أن الملحمة تقدم في قالب شعري قصصي تحاكي بطولات قومية لشعوب ما مثل ملحمة جلجامش في حين اعتدنا على الحكاية الشعبية على أنها في الغالب تقدم في شكل سرديات حكاية مثل ألف ليلة وليلة وبذلك ندرك اختلافها عن الخرافة وأحيانا أخرى تتداخل معها إلى حد ما، لأن الخرافة كما نعرفها في مفهومنا العام تنزاح إلى الخيال والعجائبية وتبالغ فيهما كثيرا والحكايات الخرافية عادة ما لا يكون فيها الواقع مثل بعض الحكايات الخرافية التي نتداولها في مجتمعنا الجزائري لكنها يمكننا إسقاطها على الواقع بطريقة ما.

يفرق "شوقي عبد الحكيم" في كتابه "السير والملاحم الشعبية العربية" بين السيرة والملحمة حيث يرجع هذا الفرق إلى اللغة الأدبية فنجد لغة السيرة تتداخل مع الرواية وضوابطها القصصية والنثرية بينما نجد الملحمة تقوم على لغة شعرية غنائية إنشادية تسرد قصة طويلة غالبا كان موضوعها البطولات مثل السير الملحمية التي عرفها العرب، مثل سرديّة بني هلال أو التي اهتمت بسرد بطولات لشخصيات أسطورية أو تاريخية استلهمت من القص الديني مثل قصة ابراهيم الخليل وابنه اسماعيل وغيرها من الملاحم التي عرفها العالم القديم أو تم العثور عليها في جغرافيات عربية مختلفة.⁷

وبطبيعة الحال هذه الفوارق الطفيفة التي ذكرناها بين فن الملحمة وفنية السيرة الشعبية وإن كان هناك تداخل وتزاوج سواء في الموضوعات المتناولة كالبطولات أو حتى أسلوب الشفهي في انتقالها بين الأجيال إلا أن هذه الفوارق تتأتى من اختلاف الطرق التعبيرية البنائية والفنية حسب الأنساق التي تشكل عادات وقيم ومخيلة وحتى معتقدات مجتمع عن آخر ولهذا نجد الحكاية الشعبية في الغالب بسيطة قد ترتبط بالحياة اليومية البسيطة الذي يعيشه الإنسان العربي وسط ظروفه ورحلاته والقيم التي يريد أن يزرعها في ذهنه أفراد مجتمعه عبر الحكيم سواء كانت بأسلوب التخويف مثل حكاية الغولة المعروفة في المجتمعات المغاربية

أو وعاء للقيم مثل حكاية بقرة اليتامى لأن أسلوب الحكيم السردى عادة ما يكون أقرب للإنسان البسيط اليومي لأنها تعبر عن خلجاته واحتياجاته وتعكس همومه فهو يجد نفسه جزءاً لا يتجزأ من هذه الحكاية . فالعربي عاش مرتحلاً باحثاً عن الكلاء والماء والاستقرار أو الإغارة على القبائل أو الصيد أو الزراعة وهي من اهتمامات الإنسان العربي وهي من سمات المجتمعات البدوية وهذا الارتحال جعله منفتحاً ساعده على تشكيل ثقافته وفنه وسياسات قوله لأن السيرة الشعبية عادة تبنى على حدث بطولي كبير فردي أو جماعي لكنه يشكل حكمة جماعية سواء تعلق الأمر بالقوة أو الشجاعة أو الكرم والجود وغيرها مما تحاول هذه الحكايات الشعبية أو السير الشعبية وتقريرها لأفراد القبيلة أو الجماعة للأجيال الناشئة لإنتاج الثقافة الشعبية.

ولكن يمكننا القول أيضاً بأن الحكايات الشعبية في حقيقة الأمر لا ترتبط دائماً بإنجازات واقعية تاريخية أنجزها الإنسان العربي لأنها قد تكون وسيلة تعبيرية عن عجزه لبلوغ ما يتمناه أو عجز عن تحقيق بطولات على أرض الحياة فأتنتجها في فن الحكيم تعبيراً عنها ولهذا نجد بعض السير الشعبية محملة بالعجائبي والسحري لخلق إثارة وغموض في مشهد درامي يعطي لبطل السيرة دوره القوي والبطولي كصفة من صفات القائد البطل حتى تلي حاجة الضمير الشعبي العربي وتعطشه لمثل هذه البطولة ودورها «فالسيرة الشعبية تستفيد الكثير من الموروث الشعبي من الحكايات الخرافية التي حفظها الناس وتداولوها، ثم دونوا مختارات منها في الكتب المجمعة (...)» كما أنها تستفيد استفادة أكبر من ألوان أخرى من الموروث الشعبي القولي الذي اختصت به الجزيرة العربية (...) هذه الألوان هي تلك الحكايات التي نتحدث عن أيام العرب»⁸.

يمكن لهذا الكلام أن يخلينا إلى التساؤل حول أي نوع أدبي نتحدث عنه إذا ما كان موضوع الاشتغال هي السيرة الشعبية؟ لنجد هذه الأخيرة تستلهم من الأنواع الأدبية عامة مثل الحكاية الخرافية والبطولية وتتداخل معها بالإضافة إلى أنها تقدم نفسها في طابع ملحمي أقرب للملاحم تارة أخرى وحتى يمكننا أن نستقي منها المثل الشعبي واللغز الذي يمثل الموروث الشعبي إذا ما قلنا بأنها تتميز بكونها «فن مستقل بذاته له قواعده وأصوله، وله بناؤه الفني الخاص، وله أهدافه الفنية والاجتماعية والسياسية التي استقل بها (...)» فلا يمكن أن ندرج السيرة الشعبية العربية ضمن الحكايات الخرافية، والحكايات الشعبية الخاصة بالبطولة؛ فهي وإن حملت من ملامحها إلا أنها تتميز بمنهج خاص بها»⁹.

" مقارنة في سيرة سيف التيجان "

بالرغم من أن العرب لم يعرفوا نوعا واحدا من الحكيم والمتمثل في الحكايات والسير الشعبية فقط وهذه الأخيرة كما سبق وأشرنا تتشابه في مكوناتها السردية مع الرواية ومادة الحكيم تختلف من سياق تاريخي وثقافي إلى آخر وبطبيعة الحال الاستمرار الزمني في تداول هذه الحكايات يلعب دورا كبيرا في تطور هذه المادة الحكائية وحتى شكلها فمادة أو بنية الحكاية كلما انتقلت من مكان لآخر ومن مجتمع لآخر كلما أضيف لها تركيب سردي آخر وتعتبر بمثابة تطور في الطريقة التي تقدم بها الأحداث القصصية، وكما أشار دارسوا السيرة الشعبية بأن السيرة الشعبية لها شروطها وخصوصياتها المنفردة التي تجعلنا نسميها سيرة شعبية.

إذ نجد -سعيد يقطين- في هذا الصدد "يشدد على تميز وتفرد وخصوصية السيرة الشعبية لما تقدمه من إمكانيات تساعدنا على تفكيك بنيتها الحكائية والاجتهاد في استدعاء آلياتنا التحليلية فهي ترفض استقبال التصورات السردية الجاهزة عندنا لماذا؟ لأننا لا نعرف ما قد سنجد في بنية مادتها الحكائية عندما نشتغل على تحليل هذه المادة إلى جانب التركيز على شكلها وعليه تحديد جنسية السيرة الشعبية حسب -سعيد يقطين- ومعرفة أي جنس أدبي أمامنا خطوة سابقة لأي تحليل".¹⁰

ومن هذا المنطلق يذهب سعيد يقطين إلى اعتبار «الحكاية هي الطابع الذي تشترك فيه مختلف الأنواع التي تندرج ضمن السرد. إنها العنصر الثابت الذي ينظم أي كلام يوسم بميسمها ويلحقه بدائرة جنس السرد (...) والبحث في حكاية السيرة الشعبية هو بحث في البنيات الحكائية التي بواسطتها تنتمي السيرة إلى جنس السرد».¹¹

ما قد يعنيه هذا الكلام أن الحكائية هي العنصر الذي تشترك فيه الأنواع السردية عموما على اختلاف بنيتها انتقل من الشفاهي الذي كان يحكى في المجالس والمقاهي قديما إلى التدوين لينتج لنا في الأخير نصا ثقافيا بعدما قطع مراحل متعددة حسب الرواة وما أضافوه لهذه النصوص حسب ثقافتهم ومعتقداتهم المختلفة ولفهم المادة الحكائية للسيرة الشعبية لا بد من معرفة مراحل تطور النصوص الحكائية شفويا وصولا إلى التدوين ليمكننا من فهم ما يميز التركيبة السردية للسيرة الشعبية عن باقي القصص الشعبية كون أن «السيرة الشعبية ملتقى نصيا يستوعب العديد من النصوص، ويعارض العديد منها، ويستعير آليات بعضها، ويؤسس ذاته داخل النص العربي، ويستقل عنه ليغدو على هامشه».¹²

بمعنى أن السيرة الشعبية تشابه وتعارض الأنواع السردية الأخرى إذ نجد في السيرة المادة الحكائية (الحكاية)

كما قد نجدها تحتوي على جميع عناصر أو مكونات الحكى التي نجدها في باقي الأنواع وتعارضها كون أن السيرة الشعبية لها ضوابطها التي تميزها عن الحكايات الخرافية أو الملحمية.

وبهذا نخلص إلى أن السيرة الشعبية لها خاصية استيعاب نصوص متعددة في إطار تعالقي فهي بذلك تأخذ صفة الموسوعية للنصوص الشفاهية الحكائية والملحمية التي جمعت في سرديات طويلة مترابط ويذهب سعيد يقطين إلى «اعتبار السيرة الشعبية العربية موسوعة حكاية كون أن مختلف السير نصا سرديا واحدا تسهم كل بنياته النصية في تكوين نص سردي له خصوصيته وغناه وتعددته على المستويات كافة»¹³، وهذه النصوص في استطاعتها إنتاج معرفة خاصة بسياقنا الثقافي والأدبي الشعبي لأنها «تعتبر ناقلة أساسية للمعرفة، تماما مثل كلام لا ينبغي لخطه أن ينقطع أبدا من جيل لآخر تحت طائلة تهديد الترابط الاجتماعي، واستمرار حياة الجماعة ... إنها ترتبط بنظام القرابة والخصب، وبنظام الكون وتناوب الأيام والليالي والفصول»¹⁴.

3. السيرة الشعبية (تاريخ شعبي ثقافي يزواج بين الواقع والخيال):

يقول بول ريكور في كتابه الزمن والسرد «التاريخ هو شكل من أشكال المعرفة من خلال العلاقة التي يقيمها بين التجربة التي عاشها أناس في أزمنة أخرى وبين المؤرخ في الوقت الحاضر (...) والتاريخ يستهدف المعرفة»¹⁵، فالمعرفة هي جزء لا يتجزأ من الثقافة الشعبية وتاريخ هذه الشعوب.

إن حديثنا اليوم عن السيرة الشعبية العربية كونها تمثل ذاكرة شعبية لجماعات مرت عبر التاريخ في حقيقة الأمر هو حديث عن تحف فنية تاريخية ساردة لوقائع وأحداث زمانية مازالت موجودة في المتاحف الغربية أو لنقول أن هذه المتاحف تصدر التاريخ الشعبي المحمل بالحقائق وإن تزواج بعنصر التخيل، «فالتاريخ حقا هو تاريخ البشر للبشر وبالبشر»¹⁶. كما أنه حديث عن تاريخ شعبي مازال يحتاج إلى الفهم قبل التأويل لأنها طريقة لاستكناه الأجوبة وتحصيل معارفنا التي أنتجها الضمير الشعبي وحفظتها الذاكرة الجمعية وقلّ من اهتم بهذا الموروث الشعبي الذي ارتبط لا محالة بالتاريخ الواقعي لبني لنا تاريخا أسطوريا، ويقيم علاقة متداخلة مترابطة لا يمكن تفكيكها وبهذا المنظور يمكن تعريف السيرة الشعبية على أنها « قصة شعبية خارقة تقوم على أساس تاريخي»¹⁷. فإن كانت السيرة الشعبية أنتجها ورواها إنسان فالتاريخ بدوره جزء من وجود هذا الإنسان، لأن هذا الأخير هو الراوي والمؤرخ للأحداث التاريخية وطبيعي

" مقارنة في سيرة سيف التيجان "

أن لا يخلو هذا التأريخ أو الحكى من الذاتية ومن الأيديولوجية وحتى من التقصير فلا يعقل أن يكون هذا المؤرخ مُلماً بكل الوقائع والحقائق بتشعبها وإذا خرجت من إطارها التاريخي إلى الحكايات فإنها لا تخلو من عنصر التخيل وصناعة التشويق كمادة جاذبة لهذا الحكى لنكون أمام رواية تاريخية وتخييلية عرفها العرب قديماً ليذهب بعض الباحثين إلى أن «التاريخ المقدم في صورة روائية لم ينتظر القرنين التاسع عشر والعشرين ليثبت وجوده في الأدب العربي. فلدينا في القديم روايات عنتر، وسيف بن ذي يزن، وبني هلال، الجازية، والبطال، وذات الهمة وغيرها».¹⁸

إن التاريخ قد يقدم في ثوب حكاوي وحتى أسطوري فالراوي الشعبي ليس ملزماً بحقائق التاريخ الذي يلزم به المؤرخ لأن الحقيقة هي ما يحكيه الناس شفويًا ثم يلقي انتشاراً واسعاً بين الناس والجماعات، وقد نجد مصداقية الأحداث التاريخية وإن تخللت بما هو تخيلي عند الشعب أكثر منها عند المؤرخ التاريخي لهذه الأحداث وإن كان هذا الأخير ملزماً بهذه المصداقية، ونجد المؤرخ نفسه يستقي أحداثه وفهمه لسياقها من ما يرويه الناس ويتداوله شفويًا في غياب الدلائل والوثائق التاريخية أمامه فالمؤرخ ينظر للمجتمع وما يحتويه من روايات شفوية كوثائق تاريخية، والرواية الشفوية يمكن اعتبارها وثيقة تاريخية إذا تمت غربلتها إذ لا يمكنها أن تخلو من العناصر والوقائع الصحيحة والحقيقية وإن كانت محملة بالأساطير والعجائبي تتجسد في كائنات خرافية أو أفعال خيالية التي تضيفها الذات الراوية لها «والتداخل بين الواقع والمتخيل وارد، لأن الإنسان لا يميز بينهما في حياته اليومية، بل هناك من يعتبر أن المتخيل هو أكثر واقعية من الواقع نفسه، لأنه يمكننا من معرفة الأشياء الحميمة التي نعيشها في أعماقنا، ويهدف إلى تجاوز عدم اكتمال الواقع الحقيقي، ووظيفة غمر فضاء الواقعي هي من الوظائف الأساسية للأدب الشعبي لذلك يصير المتخيل من هذا المنظور جزءاً لا يتجزأ من الواقع نفسه».¹⁹ فالسيرة الشعبية تمثل ذاكرة الجماعة التي لا تخلو من المعتقدات التي تؤمن بها هذه الجماعة لهذا لا يمكن أن نعتز داخل السيرة الشعبية عن حقائق تاريخية مجردة فقط وإنما تاريخ واقعي أنتج لنا تاريخ أسطوري لهذا نجد والقول هنا "لبول ريكور" أن «تاريخ الأحداث لا يمكن إلا أن يكون تاريخاً سردياً وهكذا يؤخذ التاريخ السياسي وتاريخ الأحداث والتاريخ السردى كتعبيرات مترادفة»²⁰، وهنا تتجسد خاصية السير الشعبية العربية إذا ما بحثنا عن تجلي التاريخي في مادتها «فالمقاربة الأنثروبولوجيا ترى أن الحكاية الشعبية تسجل تاريخ سلالة معينة وقيم جماعة متميزة، وتضفي على هذه الجماعة خصوصيات إثنية».²¹

والمعنى من هذا القول أن السيرة الشعبية بعدها هو قومي ثقافي بالدرجة الأولى ولهذا فهي محملة بالخصوصيات التي تميز تاريخهم الذهني عن غيرهم «فالتراث الشعبي يتألف من عناصر تعمل على تحقيق ما استقر في النفسية الجماعية العامة في إطار شعب من الشعوب من قيم عليا ومن خيارات كامنة أو ظاهرة تراكمت على تأريخ يحدده الطول والقصر»²² وهذه الخصوصيات التي تميز جماعة ما، هي خزانة ثقافتهم وحكمتهم التي تتدخل في تنشئتهم الاجتماعية كالانتصار ضد الظلم والعدوان بأشكاله، والتخلي عن العادات السيئة وتقويم سلوكيات الجماعة ضد العنصرية والكراهية والصراعات القومية الثقافية ونستجلي هذه الصورة من شخصية عنتره في سيرته مثلا، فهي تتسم بطابع المقاومة ضد العدوان الخارجي خاصة إذا ما نظرنا للسيرة الشعبية التي سردت في زمنية الحملات الصليبية فهذه الصور هي التي نسجت البنيات الاجتماعية والفكرية لهذه الجماعات الساردة لتاريخهم والمرتبطة ارتباطا وثيقا بالمعتقد الديني ونقصد منها التي سردت في العصر الإسلامي وأشهرها الأميرة ذات الهمة والتغربة الهلالية والظاهر بيبرس

4. البطل ومثالاته في سيرة سيف التيجان بين المرجعية التاريخية والتخييلية:

إن جل السير الشعبية التي عرفها العرب وسردت أيامهم إنما تدور أحداثها الرئيسية حول البطل الذي يمثل محور هذه السير الشعبية ويذهب "عاطف عطية" في كتابه "الثقافة الشعبية العربية" إلى أن كل سيرة شعبية تتمحور حول بطلها، فهو الأساس الذي تُبنى عليه الحكاية والتي يمكنها أن تنشئ ارتباطا وتفاعلا مع جمهور متلقيها أو أفراد المجتمع الذي تُسجت فيه، فهو يرى أن العربي يحمل في ذهنه "فكرة البطل"؛ أي أن رمزية البطولة مرسخة في وعي العربي، ولهذا فملتقي يجد في هذه الفكرة منفذ لطموحاته فالبطل هو الحامي الأقوى للناس الضعفاء و المنتصر لهم، والمدافع عن الخير في وجه الشر، حيث يقدم البطل غالبا بقدرات خارقة يتحكم في القوى السحرية أي أنه يمتلك قوى غير إنسانية والتي تتفوق على البشر وتتحكم في أحوالهم ، وهذا ما يجعلها أقرب للمتلقي وأكثر انتشارا بين الناس.

إن ما يعنيه هذا الخطاب أن قيمة البطل من قيمة القوى الخارقة التي يتميز بها وسط الأحداث، إذ كان لا بد أن يبين الفرق بين مفهوم البطل في الأساطير وبطل السير الشعبية كون الأول يمتلك صفات الآلهة أو دور الإله أو ملوك يحاولون الحصول على سمات الألوهية في حين يأتي أبطال الحكاية الشعبية بشر بسطاء مظلومين أو فقراء لديهم الرغبة في تخليص أنفسهم والآخرين من كل أنواع الظلم ولكنهم في الآن

" مقارنة في سيرة سيف التيجان "

نفسه يمتلكون صفات غير عادية تميزهم عن غيرهم كالقوة والقيم الخيرة والقوى السحرية قادرين على تغيير المجتمع وحماية الجماعة ودفع العدوان عنهم لذلك يحاول المتلقي تمثل هذه الصفات التي يتصف بها بطل سيرتهم ينجذب للدور البطولي فيها ومن هذا المنطلق يعطي الراوي اهتمام كبيرة لدور البطولة في السيرة الشعبية باعتبارها ركيزة الحكاية عند المتلقي ومدى إبداء اهتمامه بها ومحاوله تمثل قيمها²³.

فإذا ما تمعنا النظر في حكاياتنا الشعبية التي نعرفها فلا شك أن نجد دائما الحكاية تتجسد انطلاقا من شخصية بارزة وسط الجماعة وسواء كانت امرأة أو رجل أو فتى اختلفت ظروفه (مقهور أو مظلوم أو فقير) وربما ملك في رقعة جغرافية ما، حيث غالبا ما تنزاح الحكاية إلى طابعها العجيب السحري المعهود فيجدها تتجسد في كائنات غير بشرية خارقة توظف في خدمة البطل البشري أحيانا كثيرة ، أما السير الشعبية المشهورة التي عرفها العرب فإن أحداثها ارتبطت بشخصية بطولية أخذت بعدا رمزيا في أذهاننا وسياقنا الثقافي الشعبي حيث أن بعض السير تم انتسابها للبطل التي تدور حوله الأحداث مثل عنتره بن شداد، الأميرة ذات الهمة ، سيف بن ذي يزن.... الخ. وشخصيات البطل وإن كانت تنح إلى فعل الخيال أو العجائبي فهي تنهل مرجعياتها من التاريخ وتحدث هنا خاصة عن السير الشعبية التي عرفها العرب في فترة الإسلام أو بعد مجيء الإسلام إذ لا تقتصر هذه المرجعية على الوقائع والأحداث الحقيقية في السير الشعبية وإنما حتى الخيالية ، فالسير الشعبية ما هي إلا قصص ارتبطت بجماعة أو سردت غزوات قبائل العرب و المسلمين ومنها هذه القصص ما كانت من الواقع ومنها ما كانت نسج خيالي أو مزيج بينهما وإن كانت شخصيات البطل مقتبسة من التاريخ الإسلامي أحيانا أخرى، في حالة ما إذا اتفقنا على أن «القصة هي التي سايرت العصور وجارت الشعوب لذلك فهي فصل ممتع من سفر تاريخ البشرية كما أنها مظهر من مظاهر الخيال الذي لا بد من توافره في الشعر والنثر(...) وأنموذج من نماذج الأسلوب وصيغة من صيغ الحكاية والأخبار والتأليف وبينما تتخذ الأسطورة من الآلهة ابطالا ، وتعنى الملحمة بالبطولة، ؛ إذ بالقصة أقرب تقف موقفا وسطا بين الاسطورة والملحمة لأنها تعنى بالإنسان قبل كل شيء»²⁴.

لذلك نجد قصص سيرنا الشعبية العربية قد تتخللها استحضار بعض الكائنات العجيبة كالحیوانات المتكلمة أو العفاريت من الجن وملوكه القاهرة وغيرها فهي تقدم بصورة عجيبة لكنها مقبولة في منطق المتلقي بما تليى احتياجاته للقوى الخارقة فقصص السير الشعبية «تشكل منذ لحظتها الأولى من تضافر عجيب بين الراوي والمروي له، تتعدد مغامراتها القصصية وتنوع وحداتها السردية بشكل دائري ولا

نهائي، فيها من قصص الجن والعفاريت والخيالي والعجائبي قدر ما فيها من الواقعي والحقيقي المعاش، وفيها من قصص الحب والقيم والعواطف قدر ما فيها من قصص الإباحية والشبقية تمتلئ بقصص الحيوان والطيور والنوادر والأمثال والحكم بقدر ما تمتلئ بقصص الخلفاء والملوك والعامة والطبقات الشعبية».²⁵

تستمد المخيلة الشعبية في الغالب هذه القصص من القصص الديني على أنواعه فنجد في القصص الديني التعامل مع الحيوانات ومع الجن مثل قصة سيدنا "سليمان وملكة سبأ"، "قصة سيدنا يونس مع الحوت"، قصة سيدنا يحيى مع السحر والكثير من القصص التي عرفناها من القرآن الكريم، فالسحر والتنجيم التي مارسه البشرية على مر الحضارات المتعاقبة كالبابلية والفرعونية... الخ و حتى المعجزات الموجودة في القصص الديني لا بد من أنها شكلت مخيلة العربي بطريقة أو أخرى المفتون بالجانب العجائبي والغرائبي خاصة إذا ما تعود على مثل هذا القصص في معتقده الديني وهذا بالضبط ما يلفت المتلقي العربي فيتماهى كثيرا مع ما هو عجيب وخارق في الحكايات الشعبية بمختلف ألوانها وأبطالها ومعاركها بواقعية أحداثها وبخيالها مؤمنا بوجود القوى الخارقة من العالم الآخر، لذلك يمكن القول أن الخيال في هذه السير الشعبية إنما أُنشئ على مرجعيات وقصص تاريخية دينية بالدرجة الأولى.

ولهذا نجد أحداث تهيئة البطل لدور البطولة في بعض السير الشعبية يستمد من مرجعية تاريخية وأخرى خيالية لا يمكن تحديد مرجعيتها التاريخية بالضبط ولكن الأحداث لها مرجعيات معهودة في القصص الديني إذا ما وقفنا هنا عند سيرة "سيف التيجان" هذه السيرة الشعبية التي سمعناها قبل قراءتها من صاحب تحقيق المخطوط "دكتور الشريف مربي"، فإذا ما قاربنا بطل سيرة سيف التيجان وفق شروط البطولة المشكلة لذهنية العربي ووفقا لمحورية البطل في السيرة الشعبية وصفاته المعهودة فإننا نجد هذه الرؤى تطابق رمزية البطل سيف التيجان الذي تقدمه سيرته على هيئة الفارس الشجاع الذي يستطيع هزيمة أكبر الجيوش في كل معركة يخوضها يخرج منها منتصرا بالإضافة إلى القوى السحرية والعجائبية التي سخرت في خدمته إذ يصور في سرديته على أنه يقاتل بين عالم الإنس و العالم الآخر عالم الجن بالإضافة إلى زواجه من جنية أي من العالم الآخر، من جهة أخرى يملك صفات البطولية مثل الشجاعة الخارقة أو قوى غير طبيعية كما تجسد السيرة المشاهد التخيلية كانشقاق الأرض وظهور فرسان من الجن لتحريره من الأسر، أيضا تستحضر المخيلة الشعبية طقوس التنجيم والسحر في تفسير رؤية الملك شرحبيل بأنه سينجب ولدا ذكرا

" مقارنة في سيرة سيف التيجان "

يكون نقمة عليه يعبد الأصنام ويتجبر على الضعفاء فيخاف الملك على دينه ليأمر الفرسان بقتل سيف التيجان والجارية المرضعة وقد كان له سنة منذ ميلاده حيث تستعطف هؤلاء الفرسان ليخلو سبيلهم ويعيش سيف التيجان بعيدا عن أبيه الملك وأمه الملكة صاعقة الحروب في خفاء وعندما يصبح سيف التيجان شابا في سن السادسة عشر يتمكن من تحرير والديه وهزيمة جيش ملك أرض الباسقات ويدخله في الإسلام.²⁶

فنشاهد هنا أن السيرة الشعبية تركز على ميلاد هذا البطل المخلص ونجدها حتى في القص الديني حاضرة كقصة سيدنا موسى مع فرعون، ولحظة ميلاد البطل قد تكون خيرا أو شرا على هذه الأمة مثل ميلاد سيدنا يوسف من أبيه سيدنا يعقوب الذي كان يحمل الخير الكبير من المطر والزرع على قومه يوم ولادته. إن لحظة الولادة في السير الشعبية غالبا ما تكون لحظات فارقة وفاصلة في حياة الجماعة لهذا يعطيها الراوي دالا رمزيا تبحث عن مدلولاتها فيوليها اهتماما وعناية كبيرتين تمهيدا لهذا الميلاد بالنبوة على أنه شخصا غير عادي فيصاحبه تنبؤ وتنجم بمستقبله، حيث يمتلك صفات البطل من الشجاعة والأخلاق والقوة التي تميزه عن باقي الأشخاص ، وفي بعض الأحيان يولد بطل الحكايات الشعبية في ظروف غير عادية سواء سبقتها نبوءات أو أحداث غريبة تنبئ بقدراته العجائية فيأتي إلى الحياة غريبا منبوذا وهو رضيعا فيلقي به في البحر أو في مكان معزول موحش لكنه في آخر السردية يتمكن من النجاة بشكل ما مثل شخصية مساعدة توظف لإنقاذه وخدمته وأحيانا تكون قوى سحرية... الخ كلها تتظافر كعوامل مساعدة له ليتغلب على الصعوبات التي واجهته ميلاده خاصة إذا كان الولد غير مرغوب فيه حسب تفسير الرؤية أو النبوءة بنذر شؤم وفي الغالب تسرد لحظة الميلاد أو مجيء المخلص الذي يرغب الجماعة في قدومه وينتظرون ولادته باعتبارها رؤية والرؤية في ثقافة الجماعة آيلة للتحقيق في الواقع لأنها أقرب إلى النبوءة.²⁷

وقد تمثل هذا في قصة سيف التيجان الذي ارتبط مصيره بتفسير الرؤية التي رواها والده الملك، من قبل المنجمين والسحرة لتكون هذه الولادة غير مرغوبة باعتبارها نذر شؤم على الجماعة وعلى الملك، كما تكهن بها المنجمين لكن في الأخير تروي السيرة كيف أن سيف التيجان لم يكن نذر شؤم على قبيلته وعلى أبيه الملك ولكنه كان المنقذ والمخلص لقومه ولوالده فنلاحظ أن الرؤية من قبل المنجمين لم تكن صحيحة بل كانت عكس تفسيرهم مما يعني أن المخيلة الجماعية لم تكن تؤمن بفعل السحر والتنجم وتمجد طقوسه وهذا يقارب ما ورد في قصة سيدنا يوسف حيث أخطأ وكذب كهنة المعبد من

المنجمين والسحرة في تفسير رؤية الملك لو لم يفسرها سيدنا يوسف الذي أمده الله بموهبة تفسير الرؤى والأحلام بإذن منه. وهذه المقاربة تجعلنا أمام مخيلة جماعية تاريخية لها منطق تفكر به ولها أحداث قومية سابقة ظلت عالقة في أذهانهم بطريقة أو بأخرى لهذا يمكننا أن نخلص إلى أن المخيلة الجماعية ليست دائما هي مخيلة خيالية مبنية على الأساطير والخرافات فقط وإنما هناك قيم جماعية يؤمنون بها ويلتفون حولها بغض النظر عن رد نص السيرة إلى الزمنية التي سردت فيه قبل أو بعد الإسلام بتوظيف الأساطير أو خلوها منها فإن هذه السير لم تخرج عن التفكير القومي الجماعي لهذا نجد بعض الأحداث مألوفة في أذهاننا خاصة القصص الديني وإن كانت مسنودة إلى التفكير الأسطوري في السر الشعبية.

ما يمكن ملاحظته من هذا المثال الذي أخذ من قصة سيف التيجان أن التاريخ والمرجعية التاريخية للأحداث التي تنتج البطل غالبا ما تكون سند لقصص السيرة الشعبية وهذه المرجعية هي مرجعية قومية بالدرجة الأولى تتداخل مع القصص الديني تارة ومع شخصيات تاريخية إسلامية تارة أخرى، وعليه نجد السيرة الشعبية وإن كانت خيالية وتوظف مشاهد عجائبية فهي تستمد سندها من المعتقد الاجتماعي والديني الذي يمثل روح الجماعة الواحدة فنحن أمام سيرة شعبية أسلوبها الحكيم ووظيفتها حماية قيم القومية والافتخار بمزاياهم وبطولاتهم ولسنا أمام وثيقة تاريخية مجردة أو أمام مؤرخ ملزم بتجريد الأحداث فلهذا نجد خيال العربي الواسع ممزوجا بين واقعه وتخييله وأساطيره الأولى بين معتقداته وما يؤمن به بين بساطته واحتياجاته هدفه الأساسي هو إيصال سماعة قيمه وأخلاقه ومحاولة تمثيلها عند أفراد الجماعة الواحدة لهذا لم تكن السير الشعبية براءة سردها وعظمت أبطالها أنتجت بغرض التسلية ولكنها تؤدي دور المؤرخ لأحداث وحياة جماعة مرت على مكان ما في زمان ما و المهذب لسلوكيات أفراد الجماعة بهدف حماية قيم الجماعة وتأصيلها عبر السرد وأسلوب الحكيم الذي عرفته هذه المجتمعات دون غيرها.

5. خاتمة:

انطلقت هذه الورقة البحثية من إشكالات وتساؤلات لا تبحث عن إجابات مطلقة ثابتة بقدر ما حاولت فتح نقاشات يمكنها إثراء البحث في موضوع التراث الشعبي بشكل عام والسيرة الشعبية بشكل خاص حيث خلصت هذه الورقة البحثية إلى أن السيرة الشعبية أو القص الشعبي يمثل روح الجماعة ماضيها وحتى حاضرها ومن لا يملك الماضي لا يمكنه امتلاك حاضره ، وقد عنيت السيرة الشعبية أشد العناية برواية بطولات وإنجازات تاريخية فعلية في قالب تخيلي حكائي يمكنه التعبير عن خلجات ونفسية الإنسان العربي وسد احتياجاته لمقاومة العدوان الخارجي وحماية المقدس الديني وردع كل أنواع الظلم ضد الإنسان العربي مادام جزءا من الجماعة الواحدة.

السيرة الشعبية تأخذ أبعادا رمزية ودلالية ولكنها لا تخرج عن وظيفتي خدمة القومية والمعتقد الديني للجماعة الواحدة.

التاريخ يعتبر سند للمخيلة الشعبية في رواية حكاياتهم وقصصهم الشعبية لكنها ترفض الحقائق المجردة فهي تعنى بالجانب التخيلي الذي يجذب أسماع المتلقي واهتمامه.

اعتماد السيرة الشعبية على التزاوج بين حقائق واقعية وتخيلية عجائبية إنما تلبية لرغبة المتلقي واستمالة لإعجابه ومن ثم التمثل بالقيم المثبوتة في طيات هذه السير فهي تخرج الإنسان العربي من إحباطات يومه وشقائه وتنقله من واقع الضعف والانكسار إلى عالم الانتصار البطولي.

التخيل والواقعي متداخلين إلى حد لا يمكن للمؤرخ الفصل بينهما، فالتاريخ مصادر في ذهن أجدادنا، ويحتاج إلى أن نتقن الإنصات، ونتقن الفهم والتأويل المشروط بمفهوم "أمبيرتو إيكو" من أجل إنتاج معرفة قادرة على فهم مجتمعتنا وثقافتنا الشعبية.

6. الهوامش:

- ¹ عبد الله العروي، مفهوم التاريخ (الألفاظ والمذاهب المفاهيم والأصول)، المركز الثقافي العربي، ط2005، 4، ص35.
- ² محمد فخر الدين، الحكاية الشعبية المغربية (بنيات السرد والمتخيل)، دار نشر المعرفة، د.ت، د.ط، ص32.
- ³ فاروق خورشيد، أدب السيرة الشعبية، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط1994، 1، ص47.
- ⁴ عاطف عطية، في الثقافة الشعبية العربية (بنى السرد الحكائي في الأدب الشعبي)، جروس برس ناشرون، ط2016، 240، 1.
- ⁵ فاروق خورشيد، المرجع السابق، ص54.
- ⁶ شوقي عبد الحكيم، السير والملاحم الشعبية العربية، هندواي للنشر، 2016، ص8.
- ⁷ أنظر/ المرجع نفسه، ص 9-12.
- ⁸ - فاروق خورشيد، المرجع السابق، ص53
- ⁹ - المرجع نفسه، ص43.
- ¹⁰ أنظر/ سعيد يقطين، قال الراوي (البنيات الحكائية في السيرة الشعبية)، المركز الثقافي العربي، 1997، صص12، 11.
- ¹¹ المرجع نفسه، ص ص13، 12.
- ¹² المرجع نفسه، ص328.
- ¹³ المرجع نفسه، ص259.
- ¹⁴ محمد فخر الدين، المرجع السابق، ص27. 14
- ¹⁵ بول ريكور، الزمن والسرد (الحبكة والسرد التاريخي)، ترجمة سعيد القاسمي، غلام رحيم، دار الكتاب الجديد، ط1، ج1، ص ص159، 158.
- ¹⁶ عبد الله العروي، المرجع السابق، ص34.
- ¹⁷ عبد المالك مرتاض، الميثولوجيا عند العرب، المؤسسة الوطنية للنشر، 1986، ص13.
- ¹⁸ محمد القاضي، الرواية والتاريخ (دراسات في تخيل المرجعي)، دار المعرفة للنشر، ط1، 2008، ص28.
- ¹⁹ محمد فخر الدين، المرجع السابق، ص10.
- ²⁰ بول ريكور، المرجع السابق، ص163.
- ²¹ محمد فخر الدين، المرجع السابق، ص 6.

- 22- عبد الحميد يونس، المرجع السابق، ص 6. 22
- 23 أنظر/ عاطف عطية، المرجع السابق ، ص 220- 222.
- 24 فؤاد حسين علي، قصصنا الشعبي، دار الفكر العربي، 1948، ص 5.
- 25 نبيل حمدي عبد المقصود الشاهد، العجائي في السرد العربي القديم، مائة ليلة وليلة والحكايات العجيبة والأخبار العربية، الوراق، ط 1، 2012، ص 10.
- 26 قصة سيف التيجان هو مخطوط عثر عليه الدكتور عبد الحميد بورايو في ندرومة بمدينة تلمسان، كان يظنه عبارة عن قصص من ألف ليلة وليلة، وبعدما سلمه للدكتور شريف مريعي أستاذ تحقيق المخطوطات بجامعة الجزائر 2 تبين أنها مخطوطة لقصة "سيف التيجان"، التي تم تحقيقها سنة 2011، وفي سنة 2017، أقيمت ندوة علمية حول السيرة الشعبية سيف التيجان بحضور الدكتور الشريف مريعي الذي سرد لنا قصته وظروف إخراج هذا النص التراثي مما تسنى لنا الاستماع لهذه القصة والإطلاع عليها في المخطوط المحقق الذي كان بحوزته، ينظر: الشريف مريعي: قصة سيف التيجان (سيرة شعبية)، ومضة للنشر والتوزيع، جيجل، 2022.
- 27 أنظر/ نبيل حمدي عبد المقصود الشاهد، المرجع السابق ، ص 158- 190.